من الصعاب

تولـد القـوة (*)

مـن الملاحظ أن كثيرا من أفذاذ البشرية كانوا من الأيتام الـذين ذاقـوا مرارة اليتم صغارا، وشبوا محرومين من كنف الأب، يصدق ذلك على رسـول القـرآن صلى الله عليه وسلم الذى قال له ربه : " ألم يجدك يتيما فآوى " ؟!، ويصدق - وإن اختلفت الصورة والظرف - علـى السيد المسيح عليه السلام الذى لم يكن له أب بشرى.. وموسى عليه السلام الذى نشأ وشب بعيدا عن أبيه !

على أن هذا ملحوظ أيضا فى تاريخ أفذاذ من أهل الفكر والعلم والفن والأدب : مكسيم جورجى، وجان جـاك روسـو، وديكنـز، وموباسـان، وشارلى شابلن الذى فقد أباه حيا منفصلا عن الأسرة لا يعاقر إلاّ الخمـر، فعاش شابلن مع إخوته فى ملجأ لامبث بلندن، ونيتشه الذى فقد أبـاه فـى السابعة، والفيلسوف جورج سانتايانا الذى هجره أبوه وهو فـى التاسـعة، وبرتراند راسل الذى فقد أمه وهو فى الثانية فأباه وهو فى الثالثة !

ومن أعاجيب سير الأيتام، قصة عبد الرحمن الناصـر الأمـوى الحاكم الأندلسى الشهير، الذى امتـد حكمـه (٥١) عامـا، الـذى اتفـق

---

* الأهرام ٢٠٠٨/٩/٤

المؤرخون والمفكرون على أنه ألمع أمراء الأندلس، وأنه برغم دماثة أخلاقه ورهافة حسه ورقة حاشيته، اجتاز وعبر بسفينة الحكم كل الأنواء والأعاصير طوال هذه الحقبة بما تميز به من ذكاء لامع واتساع أفق وبصيرة نفاذة وعزم ناهض وموهبة ناضجة وعبقرية فذة. عبر عبد الرحمن الناصر عن الولاية التى أتته فى أحلك الظروف بمقطوعة مطلعها : كم مقيم فازت يداه بِغُنْمٍ : لم تنله بالركض كف مغير !، فقد تيتم بعد ثلاثة أسابيع من مولده بقتل أبيه الذى كان وليا لعهد جده فى ظروف غامضة، فولدت المحنة فى اليتيم طاقات جعلته الألمع والأرجح والأقرب إلى جده الأكبر الذى عهد إليه بالحكم مؤثراً إياه على جميع أعمامه، وكان حكمه الذى امتد نصف قرن من أزهى عهود الأندلس الإسلامية !

وأبو حيان التوحيدى الذى حرم فى طفولته من كل عطف وحنان - واتسمت حياته منذ بدايتها بطابع القمع والحرمان، ولم يرد فى مؤلفاته العديدة أى ذكر لأبيه مما يؤكد أنه عاش طفولته بلا أب، حياً كان أو ميتا!.. الإمام مالك نشأ كاليتيم لوالد مقعد لا يقدر على شىء إلا صنع النبال.. الإمام الشافعى فقد أباه وهو دون الثانية، فحملته أمه رضيعاً إلى مكة ليعيش فى أكناف الأقارب، ومع ذلك نبغ والإمام مالك وملأ الدنيا علماً وفقها وفضلا، وصار كل منهما إماما لمذهب فقهى إسلامى كبير.. كشأن الإمام أحمد بن حنبل اليتيم الذى فقد أباه وهو طفل صغير، ولا يتذكر أنه رآه !

وأحمد شوقى أمير الشعراء الذى أخذ طفلا من بيت أبيه إلى كفالة جدته التى رعته وربته بعيداً عن كنف الأب.. وحافظ إبراهيم شاعر النيل الذى توفى أبوه وهو دون الرابعة فنشأ يتيماً فى كفالة خاله.. والعبقرى سيد

درويش الذى عاش طفولة قلقة وفقد أباه وهو دون السابعة، ومع ذلك تفجر عبقريةً وصار رائد النهضة الموسيقية العربية فى العصر الحديث !

وأرسطو الذى وإن كان أبوه طبيبا فى بلاط الملك أمينتاس ملك مقدونيا وجد الإسكندر الأكبر، إلا أنه فقده وهو صغير، وديكارت (١٥٨٦/١٦٥٠) الذى فقد أمه بعد أيام من ميلاده، وتركه أبوه لمربية ثم ألحقه فى الثامنة بمدرسة اليسوعيين، ولم يعد يراه أو يحفل به، وعانى مع اليتم مرض السل !

ووليم شكسبير.. عاش عيشة الأيتام، بل واضطلع بأعباء الرجال وأبوه حى أصابه من العسر والعجز ما جعل شكسبير مسئولا عن الأسرة وهو لا يزال فى الثانية عشرة.

ربما كانت حالة جورج برنارد شو مع أبيه، من الحالات الدالة على أثر الصعوبات والمحن، برغم حياة الأب، فى عجم عود الابن الذى يتحمل المسئولية صغيراً لتوارى أى دور فاعل أو مؤثر للأب. كان والد جورج من فقراء أبناء النبلاء، عمل فى مصنع حديد، ثم فى وظيفة متواضعة باع معاشها بعد إلغائها وشارك فى متجر أفلس، ولم يواظب إلاّ على معاقرة الخمر، والتشاغل باللهو عن الاهتمام بالجد، والإغراق فى التهرب من الهموم والمسئوليات، ولم يتعهد جورج الابن إلاّ عمه الوحيد الذى أتم تعليمه، ومع هذا كله فقد اكتسب جورج برنارد شو من عيوب ومثالب أبيه قوة، فحرم على نفسه المسكرات اتعاظاً بما رآه فى أبيه السكير ، وظل حياته يعافها ويزرى بها !

تحت عنوان " أستاذ الشعراء يتيم "، يتحدث كامل الشناوى عن إسماعيل صبرى باشا الشاعر القانونى الأديب الذى كان أبوه من غمار

الناس، فى وقت كان الناس فيه يفخرون بآبائهم.. نشأ يتيماً لم يـر أبـاه، ولكنه شق حياته بصبر وجلد فنال أعلى الشهادات وتقلد أعلى المناصـب وتبوأ مكانة سامقة فى الشعر.. نشأ فقيراً بلا أب فجعل الإنسانية أسرته !

لمـاذا اختفى الأب أو ظهر ظهوراً سلبياً فى سير الأنبياء، النبى إما يتيم فقد الأب أو حـرم فى ميلاده منه، أو هو نقيض مناقضٍ لأبيـه كمـا رأينا فى سيرة إبراهيم الخليل أبو الأنبياء الذى حاربه أبوه إلى حد إلقائـه فى النار ! لم تشذ عن هذه القاعدة أو الظاهرة سوى نبوة إسماعيل الـذبيح وإسحق ابنى إبراهيم، أو سليمان بن داود.. خلاف ذلك نرى اليتم ظـاهرة تكاد تكون عامة بين الأنبياء. بل إن إسماعيل نشأ وشب واسـتوى رجـلاً بعيداً عن أبيه إبراهيم من يوم أن أسكنه طفلاً معه أمه هاجر بواد غير ذى زرع عند موضع بيت الله الحرام !

كنت أحب أن أروى لك صفحـات مجيدة رائعة من حياة أيتام، لولا أن قائمة هؤلاء الأيتام الذين ملأوا الدنيا عطاء، بـالنبوة أو بالعبقريـة أو بالإلهـام، قائمة لا تنتهى ولا تقع تحت حصر. ما يقبـل الحـصر هـو "التأمل" فى الظاهرة، واستقطار معناها. فى المعنى تكمن الأسباب. يقـال فى بعض الأمثال، ولعله مثل صينى : إن ما لا يقتلك يقويك. لمـاذا ؟ لأن الصعاب والمشاق والأزمات والنكبات تعيد خلق الإنسان، فيولـد التحـدى الذى يواجهه، والخطر الذى يحدق به، بعثاً حياً لإرادته، ينقلها من محض الرغبة أو المراد أو التمنى إلى قوة مريدة فاعلة، يزيدها التحـدى الـذى يحاصرها اشتعالاً وتأججا ومضاءً !.. لولا هذه الإرادة التى تخلق خلقـا جديدا وخاصاً مع محنة اليتم، لكان الانهزام أمام الصعاب المحاصرة هـو النتيجة الحتمية، تجاوز هذه الصعاب إلى النمو الشامخ والعطاء الفذ هو آية

على أن الإرادة تنمو مع المحنة والعزم يكبر ويشتد مع التحدى، وأن شيئا لا يمكن أن يهزم الإنسان - فرداً فى حيانه، أو عضوا فى جماعة أو مجتمع.. إذا استنهض العزم واستنفر الإرادة.

غير اليتم تتعدد الصور التى تولد من بين الضعف قوة.. حتى العاهات البدنية، على ما تؤدى إليه من ضعف أو إعاقة، لم تحل دون صفحات مجيدة فى التاريخ وفى الفكر والفن والأدب، سطرها ذوو عاهات حتى جرى فى الأمثال أن " كل ذى عاهة جبار ! ".. وجبار هنا بمعنى قوى النفس متين الإرادة ماضى العزيمة قادر على أن يحول عاهته إلى مصدر قوة وانطلاق.. فى تاريخ البشرية عظماء ذوو عاهات ومعاقون، ولكنهم صنعوا تاريخاً وسطروا صفحات من المجد وفخار الإنسانية.. رأينا فى مصر والوطن العربى الدكتور طه حسين الذى لم يعقه كف بصره منذ الصغر عن أن يكون فى مقدمة أهل الفكر وعميداً للأدب العربى.. وقيل إن هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا كان ضريراً، وكذا كان ملتون صاحب الفردوس المفقود، وأبوالعلاء المعرى رهين المحبسين وصاحب اللزوميات ولزوم مالا يلزم.. بينما يؤلف بيتهوفن أعظم سيمفونياته بعد أن أصيب بالصمم.. هذه العلل الجسدية التى أصابتهم هى التى فجرت مكامن القوة فى العقل والفكر والخيال، وهيأت لما أنتجه وصاغه وألفه ونظمه هؤلاء الأفذاذ !

لا شىء يهزم الإنسان إذا امتلك زمام الإرادة ورعاها بالعزم وشد عليها بفهم معنى الحياة وكيف يجب للحىّ أن يدرك نعمتها الربانية عليه، وحق الوفاء بواجباتها عليه ! لا خوف على الإنسان ــ أى إنسان ــ مهما أحاط به من صعاب ومشاق وأزمات ما بقى قوة فاعلة مريدة.